

منهج الإسلام في استثمار طاقات الشباب

- الشباب في ميزان الإسلام .
- روح القوة في الإسلام .
- الرياضة ومكانتها في الإسلام .
- الرياضة بين الإسلام والعلم
- للإسلام كلمة في كرة القدم .
- فضل العلم وشرفه .
- القراءة والبحث ومسئولية المؤسسات التعليمية .
- الفراغ ومنهج الإسلام في استثماره .
- الإسلام وتربية الإرادة .

الشباب في ميزان الإسلام

رقة الفؤاد ، وصفاء النفس ، وبراءة الضمير ، وطاقة الإيمان المتوقد بين
الجوانح ، تلکم صفات الشباب المسلم ..

ولذلك فإننا نجد النبي ﷺ يلفت الأنظار وُنبه الأذهان إلى ضرورة رعاية
الشباب وتعهدهم ، والعناية بهم فيقول : « أوصيكم بالشباب خيراً ، فانهم أرق
أفئدة ، لقد بعثني الله بالحنيفية السمحة فحالفني الشباب ، وخالفني
الشيخوخة » (١) .

والشباب الذي تربي في مدرسة النبوة الأولى لم يتركه الإسلام وقوداً للفراغ
الفكري أو الروحي ، ولم يضعه على هامش الحياة يعاني الضياع والبلبلة وفقدان
الذات ، وإنما أشعره بالانتماء ، وحقق له الإحساس بالنفس . .

لما جمعت قريش جموعها ، وجيشت جيوشها ، وخرجت في ثلاثة آلاف مقاتل
متوجهين إلى المدينة ليثأروا لشرفهم الذي مُرِّع في الرغام يوم بدر ، جمع النبي
ﷺ أصحابه ، وعرض عليهم الموقف . . فرأى الشيخوخة بالبقاء بالمدينة على
أن تدور رحى المعركة في شوارعها ودروبها ، وبذلك يستطيع الصبيان والنساء
أن يساهموا في المعركة بإلقاء الحجارة على المشركين من فوق البيوت والأكام ،
وكان من أصحاب هذا الرأي عبد الله بن أبي راس النفاق . .

وكان رأي الشباب أن يخرجوا لمناجزة القوم ، وقالوا لرسول الله ﷺ : اخرج
بنا إلى أعدائنا لا يرونا أنا جينا عنهم وضعفنا ، والله لا نُطمع العرب في أن
تدخل علينا منازلنا . . ونزل رسول الله ﷺ على رأي الشباب ، وانسحب
عبد الله بن أبي من جيش النبي ﷺ متعللاً بنزول الرسول على رأي الشباب ،
ورجع وهو يتمتم قائلاً : « أيعصيني ويطيع الولدان » .

(١) حديث شريف .

وفي هذا اليوم المشهود - يوم أحد - ويعد أن أكد للشباب ذاته في الرأي ، أكد له أيضاً ذاته بالمشاركة الفعلية في ميدان القتال ، فسمح للبراعم المتفتحة من الشباب المؤمن أن تشارك في المعركة ، فأجاز سمرة بن جندب ورافع بن خديج وهما في الخامسة عشرة ، وكان قد ردهما لصغر سنهما . . فقال الصحابة : يارسول الله ، إن رافعاً رام - يجيد الرماية - فأجازه ، فلما أجازه قالوا له : يارسول الله ، إن سمرة يصرع رافعاً فأجازه . .

وفي يوم الخندق يجيز رسول الله ﷺ للقتال أسامة بن زيد ، وعبد الله بن عمر بن الخطاب ، وزيد بن ثابت ، والبراء بن عازب ، وعمرو بن حزم ، وأسيد بن ظهير . . وكل هؤلاء لما يجاوزوا الخامسة عشرة . .

بل إننا نجد أنه ﷺ يُعوِّد الشباب ويدربهم على تحمل المسئولية الكبرى في قيادة الجيوش . .

فقد وجّه النبي ﷺ جيشاً عظيماً إلى بلاد الشام بقيادة الشاب المسلم أسامة ابن زيد وهو في الثامنة عشرة من عمره . . هذا الجيش يضم بين جنوده كبار الصحابة من أمثال أبي بكر وعمر وأبي عبيدة بن الجراح وسعد بن أبي وقاص . . وكان عمر - حتى بعد أن ولي الخلافة - إذا رأى أسامة رضي الله عنه قال له : السلام عليك أيها الأمير ، فيقول أسامة : غفر الله لك يا أمير المؤمنين ، تقول لي هذا ؟ فيقول عمر : لا أزال أدعوك - ما عشت - الأمير . . مات رسول الله ﷺ وأنت على أمير . .

وأمر الرسول ﷺ أسامة أن يسير إلى موضع مقتل أبيه زيد بن حارثة حتى تطأ خيل المسلمين تخوم البلقاء والداروم من أرض فلسطين . .

ولكن تأمير أسامة الشاب الحديث السن على جيش جرار فيه كبار الصحابة من مهاجرين وأنصار لم يلق هوى في نفوس بعض الصحابة ، فخرج رسول الله ﷺ إلى الناس عاصباً رأسه من مرضه الذي لحق فيه بالرفيق الأعلى ، وخطب الناس قائلاً :

« أما بعد أيها الناس . . . فما مقالة بلغتني عن بعضكم في تأميري أسامة ، ولئن طعنتم في تأميري أسامة لقد طعنتم في إمارتي أباه من قبله ، وأيم الله إن كان لخليقاً بالإمارة ، وإن كان له خيراً للإمارة ، وإن كان لمن أحب الناس إلي وأنهما مظنة لكل خير ، فاستوصوا به خيراً فإنه من خياركم » (١) .

وخرج أسامة ، ورابط بجيشه على مقربة من المدينة استعداداً للتحرك ، ولكن الجيش أوقف تحركه للحادث الجلل والخطب العظيم ، ألا وهو وفاة رسول الله ﷺ . وعقب تولية أبي بكر للخلافة كلفه كبار الصحابة في أن يجعل مهمة جيش أسامة هي الدفاع عن المدينة في ظل الظروف الحرجة التي أحاطت بقلعة الإسلام بعد موت النبي ﷺ . ولكن أبا بكر الحليم يرسلها في عبارات قاطعة جازمة فيقول : « والله الذي لا إله إلا هو ، لو جرّت الكلاب بأرجل أزواج رسول الله ﷺ ما أرد جيشاً وجهه رسول الله ﷺ ، والله لأن تخطفني الطير أحب إليّ من أن أبدأ بشئ قبل أمر رسول الله ﷺ » .

وخرج أبو بكر يُودّع أسامة وجيشه . . . أسامة راكب ، وخليفة رسول الله ﷺ يعيش ، فيقول أسامة : يا خليفة رسول الله ، لتركبن أو لأنزلن ، فيرد عليه أبو بكر قائلاً : « والله لا تنزل ، والله لا أركب .. وما عليّ أن أغبّر قدمي نعة في سبيل الله » .

ولما انتهى من توديعه قال لأسامة - مستثذناً إياه - : « ان رأيت أن تعينني بعمر فافعل ، فأذن له .. ثم وقف أبو بكر يُوصي الجيش بالوصايا الغالية . . . ورجع أسامة بجيشه ظافراً غانماً رافعاً رايات التوحيد ، فلا عجب بعد ذلك إذا رأينا أبا بكر يستخلف أسامة (الشاب) على المدينة حين خرج إلى ذي قبة ليعقد أحد عشر لواء لسحق حركة المرتدين . . .

(١) السيرة الحلبية ج ٣ ص ٢٣٤ .

وهذا أيضاً عُتاب بن أسيد ، وهو شاب في العشرين أو يزيد عنها بقليل ، يستعمله رسول الله ﷺ على مكة بعد الفتح ، وكان فيما قال له : « يا عُتاب ، تدري على من استعملتك ؟ استعملتك على أهل الله عز وجل ، ولو أعلم خيراً منك استعملته عليهم » . ولم يزل عُتاب بن أسيد على مكة إلى أن مات رسول الله ﷺ ثم أقره أبو بكر عليها إلى أن مات عُتاب يوم مات أبو بكر - رضي الله عنهما . .

وهكذا نجد أن رسول الله ﷺ يُلقى على مسامح الأمة وأعينها درساً عملياً في أن الشباب المسلم لا بد أن نحقق له ذاته ، ونُفسح له المجال ليُعبر عن نفسه من خلال أخطر الأعمال وأجلها . .

ولقد وعى خلفاء رسول الله ﷺ الدرس فكَرّموا الشباب ، واحترموا فكرهم ، وأشركوهم بالرأي والفعل في أعظم الأمور وأخطرها . .

يقول ابن شهاب الزهري موجهاً حديثه إلى الشباب :

« كان مجلس عمر رضي الله عنه - غاصاً بالعلماء والقراء كهولاً وشباباً ، وربما استشارهم . فكان يقول : « لا يمنع أحدكم سنه أن يشير برأيه ، فإن الرأي ليس على حداثة السن ، ولا على قدمه ، ولكنه أمر يضعه الله حيث يشاء » .

وكان يقول : « عليكم بآراء الأحداث ومشاورة الشباب فإن لهم أذهاناً تفل الفواصل ، وتحطم الزوامل » .

وكان العرب يقولون : « عليكم بمشاورة الشباب ، فإنهم ينتجون رأياً لم ينله القدم ، ولا استولت عليه رطوبة الهرم » .

نعم - ولا عجب في ذلك . .

ف رأي الفتى رأي فتى ، وعقول الفتيان هي العقول الصافية الثاقبة التي لم تنل منها مشبطات الحياة . .

والشباب بفكره البكر ، وبروح الإيمان المتوقد بين جوانحه لا تختلج في نفسه معاني الخوف والتردد . . فروحه - دائماً - هي روح الإقدام لا الإحجام ، والإقبال لا الإدبار ، ومنازلة مخاطر في الحياة دونها الموت . .

ومن ثم فإن فكر الشباب وعقيدته هي التي توظف الأمة من سبّاتها وتحرّك فيها الآمال إلى مستقبل أفضل . .

وما كانت ثورة « الفتى » إبراهيم على الأصنام المعبودة وتحطيمه لها إلا فكراً جديداً أيقظ النائمين ، ونبّه السكارى والمخمورين . . أن لا معبود إلا الله . . .

وما تمرد فتية الكهف على الطواغيت الحاكمة إلا رفضاً لأفكار عفنة ، وإحياء للفترة المتجددة التي حمل لواءها الشباب . ﴿ لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذَا شَطَطًا ﴾^(١)

هذا هو الشباب ، وهذه بعض مكانته في الإسلام ، وأنا لنعتقد كل الأمل على شباب هذه الأمة ليعيد الوجه الإسلامي على أرضه بعد غيبة طويلة ، وليرفع شعار التوحيد قولاً وعملاً . . لا معبود إلا الله ، ولا حاكمية إلا لشرع الله^(٢) . .

* * *

(٢) راجع مبحث « الشباب المسلم بين تيارات الفتن » .

(١) الكهف : ١٤ .

روح القوة في الإسلام

للأسف أننا لم نجد شمس الإسلام مشرقة - حتى هذه اللحظة - على أية بقعة من بقاع المعمورة . . الإسلام كما يريد الله لا كما تريده الأهواء . .

فالمسلمون في كل مكان خلطوا بين السنة والبدعة ، والحقيقة والخرافة ، والمستورد والأصيل ، وصنعوا من كل ذلك ديناً جديداً هو « إسلام المسلمين اليوم » .

ومما وقر في أذهان المنتسبين إلى الإسلام أن الشاب المسلم ما هو إلا إنسان تبدو عليه أمارات المرض : فهو أصفر اللون ، ناحل الجسم ، شعث الهيئة ، إذا مشى خلته شبحاً يتحرك ، لا يجيد شيئاً غير الحوقلة والترجيع ، وليس له في دنيا الناس قليل أو كثير . .

وهذه - ولا ريب - صورة مشوهة من الخرافات التي ألصقت بالإسلام تارة باسم التصوف ، وتارة باسم الزهد . .

وهذا هو المعلم والأسوة والقُدوة .. كان النموذج الحي لروح هذا الدين في حركاته وسكناته . .

يقول علي بن أبي طالب رضي الله عنه : كان رسول الله ﷺ إذا مشى تكفأ تكفياً كأنما ينحط من صَبَبٍ . . وقال مرة : إذا مشى تَقَلَّعَ . . ويُعَلَّقُ على ذلك ابن القيم فيقول : قلت : والتَقَلَّعُ الارتفاع من الأرض بجملته كحال المنحط من صَبَبٍ ، وهي مشية أولي العزم والهمة ، والشجاعة ، وهي أعدل المشيات وأروحها للأعضاء ، وأبعدها عن مشية الهوج ، والمهانة ، والتماوت . فإن الماشي إما أن يتماوت في مشيه ، ويمشي قطعة واحدة كأنه خشبة محمولة ، وهي مشية مذمومة قبيحة ، وإما أن يمشي بانزعاج واضطراب مشي الجمل الأهوج ، وهي مشية مذمومة أيضاً ، وهي دالة على خفة عقل صاحبها ، ولا سيما إن كان يكثر الالتفات حال مشيه يميناً وشمالاً ، وإما أن يمشي هوناً ،

وهي مشية عباد الرحمن كما وصفهم بها في كتابه فقال : ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا ﴾ (١) .

قال غير واحد من السلف : بسكينة ووقار من غير تكبر ولا تماوت ، وهي مشية رسول الله ﷺ ، فإنه مع هذه المشية كان كأنما ينحط من صلب ، وكأنما الأرض تطوي له حتى كان الماشي يجهد نفسه ، ورسول الله ﷺ غير مكترث (٢) .

وإذا تأملنا صفات رسول الله ﷺ الخلقية ، فإننا سندرك لأول وهلة أن جسد النبي ﷺ كان جسداً رياضياً بكل المقاييس في كل العصور . .

يقول القاضي عياض في كتابه « الشفاء » : « إنه ﷺ كان واسع الصدر عظيم المنكين (٣) ، ضخم العظام ، عَبْلُ الْعَضْدَيْنِ ، والذراعين والأسافل ، رَحْبُ الْكَفَيْنِ وَالْقَدَمَيْنِ ، سائل الأطراف (٤) . . رِبْعَةُ الْقَدِّ (٥) ، ليس بالطويل البائن ، ولا القصير المتردد ، ومع ذلك لم يكن يماشيه أحد ينسب إلى الطول إلا طاله . . » .

بل نستطيع أن نقول كذلك إنه كان الرياضي الأول في زمانه وفي كل زمان . كان رُكَّانَهُ بن عبد يزيد من أقوى المصارعين في شبه الجزيرة العربية في ذلك الوقت ، ولقد خلا به رسول الله ﷺ يوماً في بعض شعاب مكة ، فقال له رسول الله : « باركانة ، ألا تتقي الله وتقبل ما أدعوك إليه » ؟ قال : إنني لو أعلم

(١) الفرقان : ٦٣ . (٢) زاد المعاد - لابن القيم .

(٣) المنكين : بفتح الميم وكسر الكاف هو مجمع عظام العضد والكتف . . أي قوي الساعدين .

(٤) سائل الأطراف : تام الأيدي والأرجل والأصابع طويها .

(٥) ربيعة القد : معتدل القامة .

أن الذي تقول حق لا تبعتك ، فقال له رسول الله ﷺ : « أفرايت إن صرعتك ، أتعلم أن ما أقول حق » ؟ قال : نعم . قال : « فقم حتى أصارعك » فقام رُكّانة إليه فصارعه ، فلما بطش به رسول الله ﷺ أضجعه ، وهو لا يملك من نفسه شيئاً ، ثم قال : عُدْ يا محمد ، فعاد فصارعه - وفي رواية : أنه قال : شاة بشاة - فصرعه النبي ﷺ قال : عاودني في أخرى ، فصرعه النبي ، فقال : عاودني ، فصرعه النبي الثالثة . فقال الرجل : ماذا أقول لأهلي ؟ شاة أكلها الذئب ، وشاة نشزت ، فما أقول في الثالثة ؟ فقال النبي ﷺ : « ما كنا لنجمع عليك أن نصرعك ونُغرّمك ، خُذْ غنمك » (١) .

ومن الذين صارعهم النبي ﷺ غير رُكّانة : أبو الأسود الجُمحي ، وكان يتمتع بقوة جسدية بالغة ، وقد بلغ من جسامته وقوته أنه كان يقف على جلد البقرة ، ويجاذب أطرافه عشرة ينزعه من تحت قدميه ، فبتفري الجلد ولا يتزحزح عنه . . دعا رسول الله ﷺ إلى المصارعة ، وقال : إن صرعتني آمنت بك ، فصرعه رسول الله ﷺ فلم يؤمن !

وقد انعكست هذه الروح على تلاميذ رسول الله ﷺ من الصحابة ، فهذا عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه كان مضرب المثل في قوة جسمه ومثانة بُنيانه ، يقول عنه العقاد : « وتدل أخباره كما تدل صفاته على قوة جسدية بالغة في المكانة والصلابة على العوارض والآفات . . فربما رفع الفارس بيده فجلد به الأرض غير جاهد ولا حافل ، ويمسك بذراع الرجل فكأنه أمسك بنفسه فلا يستطيع أن يتنفس .

واشتهر عنه أنه لم يُصارع أحداً إلا صرعه ، ولم يُبارز أحداً إلا قتله ، وقد يُزحزح الحجر الضخم يعيا بقلبه الأشداء ، ويصيح الصيحة فتتخلع لها قلوب الشجعان » (٢) .

(٢) عبقرية الإمام علي .

(١) رواه أبو داود .

ولقد رأت « الشفاء بنت عبد الله » بعض الفتيان يمشون متماوتين ، فقالت في دهش : ما هؤلاء ؟ فقيل لها : نَسَاك . . فقالت : لقد كان عمر إذا مشى أسرع ، وإذا تكلم أسمع ، وإذا ضرب أوجع ، وكان الناسك حقاً . .

فقوة الجسم وقوة الإيمان وجهان لعملة واحدة هي الإسلام ، والخشوع في القلوب وليس في الرؤوس كما قال عمر رضي الله عنه .

والإسلام يدعوكم يا شباب إلى الأخذ بأسباب القوة ، قوة الجسم وقوة الروح ، فالمؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كل خير . . .

وإننا باسم الإسلام نناشد الحكومات المسلمة أن تجعل « التربية العسكرية الإسلامية » مادة إجبارية في مدارسها وجامعاتها حتى نستثمر طاقات الشباب، ونبت فيهم روح البطولة وأخلاق الرجولة في عالم لا يصغي إلا إلى منطق القوة . .

وَكُلُّ شَعْبٍ ضَائِعٌ حَقُّهُ سُدًى إِذَا لَمْ يُؤَدِّ حَقَّهُ الْمَدْفَعُ الضَّخْمُ

* * *

الرياضة ومكانتها في الإسلام

ممارسة الرياضة هي توجيه من توجيهات الله عز وجل لنبيه وللمسلمين على مر العصور ، نجد ذلك جلياً في قول الله عز وجل :

﴿ وَأَعِدُوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾ (١) . . . صدق الله العظيم . . .

فالاستعداد للحرب يمنع الحرب ، والله يأمر المسلمين بإعداد القوة بجميع صنوفها ولو في حالة السلم ، لتبقى الأمة الإسلامية قوية البنيان ، متينة الأركان ، مهيبه الجانب ، لا يطمع فيها طامع ، ولا يجرؤ على إنتهاك حرمتها عدو . . .

ولم تذل أمة الإسلام إلا يوم أن تَخَلَّتْ عن هذه الأوامر وَتَفَرَّغَتْ للهو والعبث . وممارسة الرياضة في المجتمع المسلم ليست قاصرة على جماعة معينة ، ويتحول بقية الشعب إلى قطعان من المتفرجين والمصفيين والمهرجين ، فالإسلام يقيم وزناً للفرد الواحد في المجتمع المسلم تماماً كما يقيم وزناً للجماعة المسلمة ، ولعلكم تذكرون قصة الثلاثة الذين تَخَلَّفُوا عن رسول الله ﷺ في غزوة العسرة، وكيف كان العقاب ؟ وكيف كانت الدروس والعبر ؟ حتى تاب الله عليهم . . .

وماذا يُؤَثَّر ثلاثة أو خمسة أو مائة في جيش قوامه ثلاثون ألف مقاتل ؟ ولكنه الإسلام الذي يحترم الفرد ويؤكد ذاته ويجعله قيمة مؤثرة في المجتمع . . . ومن ثمَّ فإننا نُدرك السر في إجازة رسول الله ﷺ للشباب الذين بلغوا الخامسة عشرة ليقترحوا ميدان الوعى ، فكان إذا رَدُّ أحدهم قيل له : يارسول الله . . . إنه رام ، وإذا رد الآخر قالوا : يارسول الله . . . إنه يصرع

(١) الأنفال : ٦٠ .

فلاناً ، وقد اعتمد على قيادة الشاب أسامة بن زيد - كما قد علمتم - لأنه رياهم وصنعهم صناعة إسلامية غير قابلة للمنافسة . .

. وبهذه الحقيقة التي وضع أصولها الإسلام ، ينادي اليوم علماء النفس ، ينادون بأن الشباب في مرحلة المراهقة يحتاج إلى أن يُثبت ذاته ، والرياضة في هذه الفترة بالذات متنفس جيد لتحقيق الشخصية وإثبات الذات ، فإذا لم تُوجّه طاقات الشباب إلى مثل هذه الميادين ، فقد يجنح الشاب إلى عصابة إجرامية تقوم بأعمال تُرضي طموحه ، ويُثبت بها وجوده ، وقد يمارس عادة التدخين ظناً منه أن هذا هو من سمات النضج ، ودلائل الرجولة ، وعلامات البطولة . . هكذا يقرر علماء النفس . .

والإسلام يكره الميوعة والتحلل . . يكره الشباب الناعم . . الشباب الذي يجرح خذه خطرات النسيم ، ويكره المجتمعات التي تشبه غشاء السيل . . المجتمعات التي يصحو الشباب فيها على صراخ الجنس ، وبنام على هدهة الشهوات . .

ولـ كان شباب رسول الله ﷺ كعامة شبابنا لظل الإسلام محجوراً عليه وقابعاً بين جبال المدينة ، ولكن تربية الأرواح المؤمنة كانت تسير جنباً إلى جنب مع تربية الأجساد وإعداد القوة ، فمن معركة إلى معركة ، ومن سرية إلى غزوة إلى مهمة فدائية . . وكان إذا استقر المقام برسول الله وصحابته ، فسباق بين الخيل والإبل ، ومران على تسديد النبل ، ومعسكرات ومناورات لرفع كفاءة الجند القتالية ، حتى إذا جدَّ الجد كانوا الفرسان البواسل الذين لا تُنكس لهم راية . . وحسبي في هذا المجال أن أعرض - على سبيل المثال لا الحصر - بعض النماذج التي تعكس مدى مكانة الرياضة والفروسية في الإسلام :

• الرمي :

اهتم الإسلام بالرمي رياضة وإعداداً للمعارك ، ولا يخفى علينا ما للرمي من مكانة خطيرة في الحروب على مر العصور وخاصة في العصر الحديث . . فضرب المدفعية رمي ، والقذف بالطائرات رمي ، وإنطلاق الصواريخ إلى أهدافها رمي . .

ولقد نبّه النبي ﷺ إلى خطورة هذا النوع من الرياضة ، وأثره في ميادين القتال ، فعن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ وهو على المنبر يقول : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة . . ألا إن القوة الرمي ، ألا إن القوة الرمي ، ألا إن القوة الرمي » (١) .

وقال : « إن الله ليُدخل بالسهم الواحد ثلاثة نفر الجنة : صانعه المحتسب في عمله الخير ، والرامي به ، والمد به ، فارموا واركبوا ، وأن ترموا أحب إلي من أن تركبوا » (٢) .

وعن سلمة بن الأكوع قال : مرّ النبي ﷺ بنفر من أسلم ينتضلون بالسوق ، فقال : « ارموا بني إسماعيل فإن أباكم كان رامياً ، ارموا وأنا مع بني فلان » قال : فأمسك أحد الفريقين بأسهمهم ، فقال رسول الله ﷺ : « مالكم لا ترمون » ؟ فقالوا : كيف نرمي وأنت معهم ؟ فقال : « ارموا وأنا معكم كلكم » (٣) .

حتى اللهو في الإسلام ، فإنه اللهو النافع ، وليس اللهو الخليع الذي يهدم ما شيّدته روح الجد . . فنجد رسول الله ﷺ يُرغّب في الرمي كوسيلة للترفيه فيقول : « عليكم بالرمي فإنه خير لهوكم » (٤) .

* * *

• المصارعة :

سبق أن ذكرنا مصارعة النبي ﷺ لركانة وغيره ، ولكننا هنا نلفت الأنظار إلى أن المصارعة التي يُرغّب فيها الإسلام ويحض الشباب عليها ليست مثل

(٢) رواه أحد وأبو داود وغيرهما .

(٤) رواه البزار والطبراني .

(١) رواه مسلم .

(٣) رواه البخاري .

المصارعة الأمريكية أو الإنجليزية التي تُعرض على الشاشات فهي أشبه بعراك الحيوانات في غابة ، وهي بالقطع تعكس نفسيات هذه الشعوب . .

فهذه المصارعة ليس فيها مُسحة من فن أو خُلُق رياضي . . نعم فيها القوة ، ولكنها القوة على طريقة الحيوان ، وإلا فما معنى الانتصار على الخصم بالضربة القاضية ؟ وما معنى أن تسفر بعض المباريات عن قتل أحد المصارعين أو إصابته بعاهة مستديمة ؟ أية رياضة هذه ؟ !

إننا نريد مصارعة فيها فن . . فيها خُلُق رياضي . . فيها استعراض مهارات وكفاءات ، وليس مصارعة أشبه ما تكون بمصارعة الثيران . . ! !

* * *

● الفروسية :

من أجمل أنواع الرياضة ، وما زالت الفروسية - حتى الآن - تحتل مكانة بارزة بين الألعاب الرياضية على مستوى العالم ، فتُعقد لها المسابقات المحلية والعالمية ، وقد بلغ العرب فيها شأواً لا يُدرِك ، واعتنوا بالخيول وأنسابها وأوصافها . .

ولقد أقسم بها الحق - تبارك وتعالى - في كتابه تنويهاً بعظيم شأنها فقال :

﴿ وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا * فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا * فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا * فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا * فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا * إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ ﴾ (١) .

وقد عقد رسول الله ﷺ بين الخيل مسابقات للمسافات الطويلة والقصيرة ،

عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : « سابق رسول الله ﷺ بين الخيل التي

(١) العاديات : ١ - ٦ .

قد أضمرت فأرسلها من « الحفياء » وكان أمدها ثنية الوداع - ستة أميال أو سبعة - وسابق بين الخيل التي لم تضمر ، فأرسلها من « ثنية الوداع » ، وكان أمدها مسجد بني زريق - ميل أو نحوه - وكان ابن عمر ممن سابق فيها ^(١) .

وهكذا نجد في هدى رسول الله ﷺ المنهج التربوي الصحيح لتربية أجيال تستحق عن جدارة أن تكون ذريةً لخير أمة أخرجت للناس . .

تأمل هذا المنهج الفذ :

يقول النبي ﷺ : « كل شئ ليس فيه ذكر الله فهو لغو وسهو ولعب ، إلا أربع خصال : ملاعبة الرجل امرأته ، وتأديب الرجل فرسه ، ومشيه بين الغرضين ، وتعليم الرجل السباحة » ^(٢) .

وعلى نفس المنهج الذي سنّه رسول الله ﷺ في تربية الأجيال المؤمنة سار خلفاؤه وصحابته من بعده . . يقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه : عَلَّمُوا أولادكم العوم والرماية ، ومروهم فليشبووا على الخيل وثباً ، ورووهم ما يجمل من الشعر » .

* * *

• العدو :

والعدو من أنواع الرياضة المفيدة للجسم ، فممارسته تُقوِّي القلب ، وتُنشِط الدورة الدموية ، وتُكسب الجسم كفاءة عالية في الخفة وسرعة الحركة خاصة في ميادين اللعب . .

وكان النبي ﷺ يُشجِّع صحابته على ممارسة هذا النوع من الرياضة ، بل كان يمارسه بنفسه . .

عن سلمة بن الأكوع قال : بينما نحن نسير ، وكان رجل من الأنصار لا يُسبق

(٢) أخرجه النسائي والطبراني .

(١) من حديث رواه البخاري .

أبداً ، فجعل يقول : ألا مسابق إلى المدينة ؟ هل من مسابق ؟ قلت : أما تكرم كريماً وتهاب شريفاً ؟ قال : لا ، إلا أن يكون رسول الله ﷺ . قال : قلت : يارسول الله ، بأبي أنت وأمي ، ذرني أسابق الرجل ، فقال : « إن شئت » فسبقته إلى المدينة (١) .

وعن عائشة رضي الله عنها قالت : سابقني رسول الله ﷺ فسبقته ، حتى إذا أرهقني اللحم سابقني فسبقني . فقال : « هذه بتلك » (٢) .

وهذا الحديث القليل في مبناه ، الضخم في معناه ، يستحق منا أن نقف عنده ملياً لنرتشف من رحيقه الصافي وأدبه العالي ، ولنصح بعض المفاهيم الخاطئة التي تُضاف إلى رصيد المسلمين اليوم . .

أولاً : هل علّمت في أية ظروف وقعت مسابقة رسول الله ﷺ لعائشة ؟ لقد وقعت في سفر كان الصحابة فيه مع النبي ، فقال لهم : « تقدموا » ، فتقدموا وتركوه مع زوجته . .

النبي . . خير من حملت الغبراء وأظلت السماء . . النبي . . العظيم القدر ، الكبير النفس ، الواسع الصدر ، يمازح زوجته ، يريد أن يجبر خاطرها ، ويرفع من روحها ، ويكسر « روتسين » الحياة الزوجية . . يريد أن يضع بعض التوابل التي تجعل للحياة الزوجية طعماً ، ويشحنها بالعواطف النبيلة حتى تواصل سيرها بأمان تحت سماء الحب الكبير . . فيقول لزوجته عائشة : « سابقيني » فتسابقه ، ولعله تظاهر بأنه لا يقدر على اللحاق بها كنوع من المداعبة البريئة التي تُزكي أحاسيس الحب ومشاعر المودة والرحمة . .

بأبي أنت وأمي يا رسول الله ، لم تشغلك الرسالة على ضخامتها ، ولا معارك الإسلام على جسامتها ، لم يشغلك ذلك عن حقوق زوجاتك عليك ، فتنزل إلى مستوى عقولهن ، وتخطب المرأة باللُغة التي تُحسن فهمها . .

(٢) رواه أحمد وأبو داود .

(١) رواه مسلم .

ولولا أنك نهيت عن إطرائك لقلت : ﴿ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾ (١) صلوات ربي وسلامه عليك ياسيدي يا رسول الله . .

ثانياً : هل عَلِمْتَ أن النبي ﷺ عندما سابق عائشة كان قد تجاوز الخمسين من عمره ؟ وللأسف أن الناس اليوم يعدون الرياضة ترفاً ، ويتهمون من يمارسها بأنه لا يجد شغلاً يشغله ، ولا شك أن هذا أثر من آثار الترف والكمال الذي غرق فيه المسلمون ، وراحوا في سُبات عميق حتى سبقهم غيرهم ، وانتزع منهم قيادة ركب البشرية . .

ولو أن الناس اليوم رأوا رجلاً في الخمسين - بل في الأربعين - من عمره يمارس الرياضة لاتهموه بالجنون والخبال ، وبأنه عجوز يتصابى ، « وبعد ما شاب ودَّوه الكُتَّاب » . من أمثال الهدم التي خلقتها عصور الانحطاط والبعد عن هدى الله وسنة رسوله ﷺ ، ولم يدر هؤلاء الغافلون أن النبي ﷺ كان يُسابق عائشة بعدما جاوز الخمسين من عمره ، ولم يعلموا أنه جعل بعض أنواع الرياضة واللَّهو عبادة يتقرب بها المسلم إلى ربه . .

* * *

• رياضة النساء :

هل للمرأة أن تمارس الرياضة ؟ . . . نعم . .

فالإسلام دين الإحساس ، ودين الجمال ، والكمال ، والرشاقة ، والأناقة ، وعامة النساء عندنا لا يمارسن الرياضة إلا بين جدران أفنية المدارس أيام التلمذة . . وهذه تضم إلى آفات النساء . . ولماذا أقول آفات النساء فقط . . بل وآفات الرجال أيضاً .

فالإسلام يحض المرأة على التحجب إلى زوجها ، وأن تبدو له دائماً

(١) يوسف : ٣١ .

كالزهرة المفتوحة في أكامها ، وضاعة وجه ، ورشاقة قوام ، ونضافة هندام . . .
وكذلك الرجل .

والمرأة أحوج ما تكون إلى الرياضة بعد الزواج ، وبخاصة في أوائل فترة
الحمل حيث إن هناك تمارين رياضية معينة تمارسها المرأة الحامل حتى تساعد
على الولادة الطبيعية . . . ولنتقل ما يؤيد كلامنا من أولي الذكر . . .
تقول دائرة المعارف الطبية الحديثة :

« ليس هناك دليل مقنع على أن النشاط البدني يضر النساء في أثناء الضم،
أو يؤثر في الدورة الحيضية ، أو يزيد في آلامها ، بل إنه يساعد أحياناً في
تخفيف هذه الآلام . . .

وليس من الضروري أن يمنع الحمل المرأة من مزاولة جميع الألعاب . . . وينصح
أغلب الأطباء مرضاهن الحوامل أن يهجن الرياضة العنيفة الأخرى ، لأنها
تُعَرِّض للوقوع الذي قد يُغيّر وضع الجنين أو يُسبب الإجهاض . . .

وعلى العكس من ذلك ، فإن تقوية عضلات البطن عند ممارسة الرياضة قد
تُقصِّر وقت الوضع ، وتُقلِّل ألم الولادة . وينصح كثير من الأطباء بممارسة
الرياضة التي تُقوِّي جدار البطن في أثناء الحمل^(١) .

فالرياضة مطلوبة من المرأة ولا حَرَجَ عليها في ممارستها ، ولكن الإسلام يُحرِّم
عليها تحريماً قاطعاً أن تُظهر شيئاً من عورتها أمام الأخرى ، أو تبدو أمام أي
رجل أجنبي عنها وهي تمارس الرياضة تحت أي شعار كان . . .

* * *

(١) الموسوعة الطبية الحديثة ج ١ ص ١٤٥ .

الرياضة بين الإسلام والعلم

يطيب لنا أن نعرض - في هذا المجال - فقرات من بحث قيم لابن القيم يتحدث فيه عن هدى النبي ﷺ في تدبير الحركة والسكون ، وعن الرياضة وأنواعها في الإسلام ، ثم نعرض بعد ذلك بعض نتائج البحوث العلمية في هذا المجال ليتبين لنا مدى استجابة الإسلام وشموله لكل ما تتطلبه البشرية في رحلتها على هذه الأرض . .

بعد أن بيّن ابن القيم أن هدى النبي ﷺ في الرياضة مطابق لأكمل أنواعها وأحدها وأصوبها ، وبعد أن أكد على أهمية الرياضة في طرد الرواسب الضارة من الجسم يقول :

« والحركة أقوى الأسباب في منع تولدها - أي الرواسب الضارة - فإنها تُسَخِّنُ الأعضاء ، وتُسهِّلُ فضلاتها ، فلا تجتمع على طول الزمان ، وتُعوِّدُ البدن الخفة والنشاط ، وتجعله قابلاً للغذاء ، وتُصلِّبُ المفاصل ، وتُقوِّمُ الأوتار والرباطات ، وتُؤمِّنُ جميع الأمراض المادية ، وأكثر الأمراض المزاجية - إذا استعمل القدر المعتدل منها في وقته ، وكان باقي التدابير صواباً . .

ووقت الرياضة : بعد انحدار الغذاء وكمال الهضم . والرياضة المعتدلة هي التي تحمر فيها البشرة وتربو ، ويتندى فيها البدن . . وأما التي يلزمها سيلان العرق ، فمفرطة . وأي عضو كثرت رياضته قوى وخصوصاً على نوع تلك الرياضة ، بل كل قوة فهذا شأنها : فإن من استكثر من الحفظ قويت حافظته ، ومن استكثر من الفكر قويت قوته المفكرة ، ولكل عضو رياضة تخصه : فللصدر القراءة ، فليبتدئ فيها من الخفية إلى الجهر بتدرج ، ورياضة السمع : بسمع الأصوات والكلام بالتدرج ، فينتقل من الأخف إلى الأثقل . وكذلك رياضة اللسان في الكلام . وكذلك رياضة البصر ، وكذلك رياضة المشي بالتدرج شيئاً فشيئاً .

وأما ركوب الخيل ، ورمي النشاب ، والصراع ، والمسابقة على الأقدام -
فرياضة للبدن كله ، وهي قالعة لأمراض مزمنة : كالجذام والاستسقاء والقولنج .

ورياضة النفوس : بالتعلم والتأدب ، والفرح والسرور ، والصبر والشبات
والإقدام ، والسماح وفعل الخير ، ونحو ذلك مما ترتاض به النفوس ، ومن أعظم
رياضتها : الصبر والحب والشجاعة والإحسان ، فلا تزال ترتاض بذلك شيئاً
فشيئاً حتى تصير لها هذه الصفات هيآت راسخة ، ومَلَكَات ثابتة . .

وأنت إذا تأملت هديه ﷺ في ذلك ، وجدته أكمل هدى حافظ للصحة
والقوى ونافع في المعاش والمعاد . .

ولا ريب أن الصلاة نفسها فيها من حفظ صحة البدن ، وإذابة أخلاطه
وفضلاته - ما هو أنفع شيء له ، سوى ما فيها من حفظ صحة الإيمان وسعادة
الدنيا والآخرة . . وكذلك قيام الليل : من أنفع أسباب حفظ الصحة ، ومن أمتع
الأمر لكثير من الأمراض المزمنة ، ومن أنشط شيء للبدن والروح والقلب ، كما
في الصحيحين ، عن النبي ﷺ قال : « يَعْقِدُ الشَّيْطَانُ عَلَى قَافِيَةِ رَأْسِ أَحَدِكُمْ
- إِذَا هُوَ نَامَ - ثَلَاثَ عُقَدٍ ، يَضْرِبُ عَلَى كُلِّ عُقْدَةٍ . عَلَيْكَ لَيْلٌ طَوِيلٌ فَارْقُدْ .
فَإِنْ هُوَ اسْتَيْقَظَ فَذَكَرَ اللَّهَ انْحَلَّتْ عُقْدَةٌ ، فَإِنْ تَوَضَّأَ انْحَلَّتْ عُقْدَةٌ ثَانِيَةً ، فَإِنْ
صَلَّى انْحَلَّتْ عُقْدَةٌ كُلُّهَا ، فَأَصْبَحَ نَشِيطاً طَيِّبَ النَّفْسِ ، وَإِلَّا أَصْبَحَ خَبِيثَ النَّفْسِ
كَسْلَانٌ » (١) .

ويستطرد ابن القيم فيقول : « وفي الصوم الشرعي : من أسباب حفظ
الصحة ، ورياضة البدن والنفوس - ما لا يدفعه صحيح الفطرة . .

وأما الجهاد وما فيه من الحركات الكلية التي هي من أعظم أسباب القوة ،

(١) حديث شريف .

وحفظ الصحة ، وصلابة القلب والبدن ودفع فضلاتهما ، وزوال الهم والغم
والحزن ، فأمر إنما يعرفه من له منه نصيب . . وكذلك الحج وفعل المناسك ،
وكذلك المسابقة على الخيل بالنصال والمشى في الحوائج وإلى الاخوان ، وقضاء
حقوقهم . وعبادة مرضاهم وتشجيع جنائزهم ، والمشى إلى المسجد للجمعات
واجتماعات ، وحركة الوضوء والاعتسال وغير ذلك . .

وهذا أقل ما فيه : الرياضة المعينة على حفظ الصحة ودفع الفضلات ، وأما
ما شرع له من التوصل به إلى خيرات الدنيا والآخرة ، ودفع شرورهما - فأمر
بأمر ذلك . . .

فعلت أن هديه فوق كل هدى في طب الأبدان والقلوب ، وحفظ صحتهما ،
ودفع أسقامهما . . ولا مزيد على ذلك لمن قد أحضره رشده . «

وتعرض الآن من حديث الطب عن الرياضة ما يزيدنا إيماناً و يقيناً بعظمة هذا
الدين القيم الذي سبق كل ما تتمخض عنه العقول - بعد طول بحث وعناء - في
جسيع ما يتعلق بالإنسان ، جسماً وروحاً . « وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدْرَهُ
تَقْدِيرًا ۝۱۱۴ .

يقول الدكتور أمين رويحة : « لا تقل أهمية ممارسة الرياضة أو الأعمال
الجسمانية المنظمة المستمرة للاحتفاظ في سن الشيخوخة بالشباب - عن أهمية
الغذاء . . وقد لا تجد بين الذين بلغوا سن الخمسين وهم في صحة جسمانية
وعقلية جيدة - واحداً لم يسبق له أن مارس نوعاً من أنواع الرياضة ، وبالفحص
الطبي يشهد دائماً كيف أن حالة الرياضي الصحية والبيولوجية في سن متقدم
تتعادل من هو أقل منه سنّاً بنحو عشر سنوات من غير الرياضيين ، وفي فحص
طبي عام أجري لمجموعة كبيرة من الرياضيين سنة ١٩٥٢ يثبت أن الحالة

الصحة للرياضي في السبعين تفوق الحالة الصحية لابن الأربعين من غير الرياضيين . .

فاجسم الذي يمارس الرياضة يحتفظ بمرونته وشباب منظره وحركاته حتى نهاية العمر . . والجسم الذي حُرِّم من ممارسة الرياضة لسبب ما ، يستطيع في سن الشيخوخة أن يتدارك بعض ما فاته من فوائدها بممارسة أعمال جسمانية كالاشتغال يومياً في الحديقة ، أو المشي مسافة معقولة ، أو ممارسة البعض من أنواع الرياضة المقوية للعضلات . . على ألا تصل في كل حال من الأحوال إلى درجة التعب . .

والرياضة في جميع أنواعها ليست مضيعة للوقت ، أو وسيلة للتسلية كما يظن البعض . بل طريق لصحة جيدة ، فهي تطرد الرواسب الضارة في الجسم ، وتُثَوِّق عضلاته ، وتزيد من نشاطه وقدرته على الإنتاج . . والمصانع والشركات الكبرى التي تُوفِّر لموظفيها ومستخدميها وسائل ممارسة الرياضة البدنية لا تحسر شيئاً في دفع التكاليف المادية لذلك ، لأنها تسترده من زيادة الطاقة الجسمانية لديهم ، وبالتالي من زيادة إنتاجهم في العمل . .

والمعروف أن أفراد الشعب الأسترالي أحسن الشعوب الإنجليزية صحة وأشدهم نشاطاً ، وأن الجنود منهم معروفون بشجاعتهم ، وقدرتهم على تحمل مشاق الحروب وأعبائها ، ويعود السبب في ذلك إلى أنه قُلِّمًا يوجد في الشعب الأسترالي فرد واحد لا يمارس نوعاً أو أكثر من أنواع الرياضة . .

وليس المطلوب في حال الشيخوخة إحراز بطولات عالمية أو ضرب أرقام قياسية ، بل إنه لا يعدو الممارسة المبكرة واستمرارها باستمرار الحياة^(١) .

* * *

(١) شباب في الشيخوخة ، للدكتور أمين رويحة ص ٧٨ ، وما بعدها .

للإسلام كلمة في كرة القدم

رما أدراك ما هي ؟

إنها الهوس المتسلط على عقول الأجيال في العصر الحديث . .

من أجلها تُقام المعارك ، وتنشب الحروب ، يموت الضحايا ، ولجلالها تُطلق الزوجات ، وتُقطع أواصر القربان ، ويطعن الأخ بالسكين أخاه . . ولا حول ولا قوة إلا بالله . . !!

ويوم أن تقوم مباراة بين فريقين لامعين ، فكأن الحرب الضروس قد أعلنت ، ورُفعت لها الرايات ، وانبرت لها الإذاعات ، وهُيئت لها الشاشات . . وأعد المشجعون لها الأحجار والسكاكين ، والطبول والمزامير ، والأناشيد الجماعية والتهنئات القوية !

وما أن تنجلي المعركة الحامية عن هزيمة أحد الفريقين حتى ينتقل ميدان المعركة من ساحة الملعب ليكون ميدانها في البيوت ، والمدارس ، والدواوين ، ومكاتب الموظفين ، والمقاهي ، وفي المجتمع الصغير ، والمجتمع الكبير ، وتسفر المعركة أخيراً عن سقوط ضحايا من المجانين . . وما أن تهدأ حدتها ، وتنجلي غمرتها حتى تبدأ معركة أخرى بمباراة ثانية . . وهَلُمَّ جَرًّا . .

وإذا رفعت صوت المنطق لتناقش أحد هؤلاء المصابين بالهوس الكروي قال لك بملء شذقيه : « إنني رياضي » .

هذه قصتنا مع كرة القدم . . اللعبة المفترى عليها . .

وهذا وجه اللعبة المزيف كما يراه شبابنا . .

وأما الوجه الحقيقي لهذه اللعبة ، فإننا - إذا فهمنا روح الإسلام ومنهجه في بناء المجتمعات - نجد أن كرة القدم من الألعاب التي يُزكّيها الإسلام وتُزكّيها تعاليمه . . فهي مدرسة تُعلّم دروساً في التجميع لا في التشتيت ، وفي الوحدة

لا في التفرق ، وفي الود لا في التباغض والعداوة . . اللعبة التي تؤكد أن الأهداف لا يمكن أن تتحقق إلا بالروح الجماعية ، وأن الفرد قليل بنفسه كثير بإخوانه . .

وإني أسأل هذا الذي يرفع راية التعصب الأعمى . . ولا يفهم من الرياضة إلا اسمها ، أسأله هذا السؤال : هل يستطيع اللاعب الأناني أن يحقق هدفاً وحده مهما كانت كفاءته ؟ . . كلا . .

لأن الكرة ستعثر على قدمه ، وسيستولى عليها الفريق الآخر . . والفريق الذي يحقق الأهداف المنظمة هو الفريق الذي يلتزم بروح الجماعة . .

هل وعينا الدرس من مدرسة الكرة التي نتعصب لها . . ؟

هل يعلم الحكام والجماهير المسلمون أن روح التفرقة والأثرة والاستبداد بالرأي - تقود في النهاية إلى الهزيمة المنكرة على مسرح البطولة في كل الميادين ؟

للأسف نحن لم نع الدرس . . قلبنا الغاية إلى وسيلة ، والوسيلة إلى غاية ، وأمنا بالشكل وكفرنا بالمضمون ، وهمنا بالمظهر وألقينا الجوهر وراء ظهورنا . . ما معنى أن أعبد نادياً وأتعصب له ؟

معنى ذلك أنني ضحل التفكير ، ضيق الأفق ، أناني الطبع ، مستبد برأبي ، لا أفهم شيئاً عن الروح الرياضية ، ولا أجيد من أنواع الرياضة إلا التصفيق الأرعن والهتاف المحموم . .

إننا لا نحجر عليك في أن تنتمي إلى نادٍ وتشجعه . . نحن معك . . ولكن هناك فرق كبير بين التشجيع والتعصب ، ولغة الحجارة والطوب ولغة الروح الرياضية التي تُعلّمنا أن نبتسم عند الهزيمة ونتواضع عند النصر ، وتُعلّمنا أن الأيام دول .

فيوم علينا ويوم لنا ويوم نساءً ويوم نُسراً

إن رسول الله ﷺ يضع لنا المثل الأعلى في الروح الرياضية ، فليتنا نعي
الدروس والعبر . . . !!

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : كانت العضاء (ناقة النبي) لا
تُسبِق ، فجاء اعرابي على قعود له فسابقها فسبقها . . . وكأن ذلك شق على
أصحاب النبي ﷺ .

ولكن المربي العظيم ينتهز الفرصة ليعلمهم الروح الرياضية ويعطيهم درساً في
أن الجلوس على القمة في الدنيا لا يدوم لأحد ، فقال عليه الصلاة والسلام :
« إن حقاً على الله - عز وجل - ألا يرفع شيئاً من الدنيا إلا وضعه . . . »^(١)
هل عقلتم يارياضيون . . . ؟

أسأل الله لي وللمتعصبين العفو والعافية والشفاء من كل داء . . . !!

* * *

(١) حديث شريف .

فضل العلم وشرفه

لم يحفل دين من الأديان بالدعوة إلى العلم مثلما حفل الإسلام ، ولم يكن مصادفة أن تكون أول آية ينزل بها الوحي على رسول الله ﷺ تتحدث عن المعرفة وأدواتها من قراءة وقلم وعلم . .

﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ (١)

ولقد أقسم الله - عز وجل - بالقلم وشرف الكلمة التي يخطها القلم إعظاماً وإجلالاً وتشريفاً للعلم فقال : ﴿ ن ~ ، وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ * مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴾ (٢)

بل جعل مرتبة العلماء تلي مرتبة الملائكة مباشرة ، وقصر خشيته على هؤلاء العلماء الذين يطلعون على أسرار آيات الله في الكون ، فقال تعالى :

﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ ﴾ (٣)

﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ (٤)

وأعتقد أنه ليس هناك تكريم للباحث والعالم المخلص لله علمه من أن يجعل المداد الذي يكتب به العالم أفضل من دم الشهيد في ميدان القتال ، فقد جاء في الأثر : « إن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما يصنع ، ولمداد جرت به أقلام العلماء خير من دماء الشهداء في سبيل الله » . . وقد علّق

(٢) القلم : ١ ، ٢ .

(٤) فاطر : ٢٨ .

(١) العلق : ١ - ٥ .

(٣) آل عمران : ١٨ .

بعض العلماء على هذا الحديث بقولهم : عذا مع أن أعلى ما للشهيد دمه،
وأدنى ما للعالم مداده .

ولا نستطيع في هذا المجال المحدود أن نحصر ما قيل في فضل العلم ومكانة
العلماء ، وهناك كتب قائمة برأسها ^(١) تحدث بإسهاب في هذا المجال . .
فلنتقل إلى مبحث آخر من مباحث هذا الفصل . .

* * *

(١) راجع : جامع بيان العلم وفضله للقرطبي ، وإحياء علوم الدين لأبي حامد الغزالي .

القراءة والبحث

« قيمة كل امرئ ما يحسنه » ولن تُحسن شيئاً إلا بالقراءة ، حتى ولو كنت محترفاً ، فجميع المعارف البشرية في شتى ميادين الحياة موضوعة في بطون الكتب . يقول « الكسندر وبيرك » : « لو تحطمت كل الآلات الحديثة ، ومعامل الذرة وبقية المكتبات ، لتمكن رجال العصر من إعادة بناء هذه الحضارة الآلية والذرية . . ولكن لو تحطمت المكتبات ، فإن عصر القوى الآلية وعصر الذرة يصبحان شيئاً من آثار الماضي » .

تعبير أصاب كبد الحقيقة . . إن الطبيب يفشل في مهمته ويصبح رسول الموت إذا لم يُثر معلوماته بالبحث والاطلاع على آخر ما توصل إليه العلماء والباحثون في مجال تخصصه . . والمدرس إذا لم يتابع القراءة فإنه لن يبقى في ذهنه إلا بقية من معلومات قابضة في زاوية من زوايا عقله (لزوم المهنة) . . وهكذا كل موظف لا يحترم ذاته ولا يخلص في عمله . . ! !

فالكاتب هو النافذة التي تطل منها على الحياة ، بل الكتاب هو الحياة « والناس موتى وأهل العلم أحياء » . . وإن أعظم من تحدث عن الكتاب هو أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ونقل بعضاً مما قاله في الكتاب يقول : « والكتاب هو الذي إن نظرت فيه أطال إمتاعك ، وشحد طباعك ، ويسط لسانك ، وجود بيانك ، وفخم ألفاظك ، ونجح نفسك ، وعمر صدرك ، ومنحك تعظيم العوام ، وصداقة الملوك ، وعرفت به في شهر ما لا تعرفه من أفواه الرجال في دهر . . » .

ولقد كان للكتاب عند العلماء المسلمين مكانة لا تعرفها من التاريخ لغيرهم ، ولا غرو ، فالحضارة الغربية التي تنعم بها البشرية اليوم - في جانبها المادي - ماهي إلا ثمرات ناضجة لبحوث العلماء المسلمين في شتى الميادين العلمية . .

يقول العلامة « ول ديورانت » في كتابه « قصة الحضارة » : « ولما مات الواقدي ، ترك ستمائة صندوق من الكتب يحتاج كل منها إلى رجلين لحمله ، وربما مُلكَ الصاحب بن عباد من الكتب في القرن العاشر ما يُقدَّر حينئذ بما كان في مكتبات أوروبا مجتمعة ، وبلغ الإسلام في ذلك الوقت أوج حياته الثقافية ، وكنت تجد في ألف مسجد منتشر من قرطبة إلى سمرقند علماء لا يحصيهم العدد ، كانت تُدَوِّي أركانها بفصاحتهم . . . » .

ولقد قرأنا عن ابن سينا أنه لم ينم مدة اشتغاله بالعلم ليلة واحدة ، ولم يشتغل في النهار - بغير المطالعة . . .

وقال التاريخ : إن ابن رشد لم يدع النظر والقراءة منذ عقل إلا في ليلتين : ليلة وفاة أبيه ، وليلة بنائه بأهله (زواجه) .

وروى عن الحسن اللؤلؤي أنه قال : « لقد غبرت لي أربعون عاماً ما قمت ولا نمت إلا والكتاب على صدري » .

وحكى ابن خلكان عن ابن شهاب الزهري التابعي والفقير المُحدِّث قال : « وكان إذا جلس في بيته وضع كتبه حوله فيشتغل بها عن كل شيء من أمور الدنيا ، فقالت له امرأته يوماً : والله لهذه الكتب أشد عليّ من ثلاث ضرائر » .

وحضر الشريف التلمساني - من أعلام الفقه المالكي - وهو صبي درس الأستاذ أبي زيد ابن الإمام ، فذكر أبو زيد نعيم الجنة ، فقال له الشريف : هل يقرأ في الجنة العلم ؟ فقال أبو زيد : نعم . . . فيها ما تشتهيهِ الأنفس وتلذ الأعين . فقال الشريف : لو قلت : لا ، لقلت : لا لذة فيها . فعجب منه الشيخ ودعا له . . .

وقد كان محمد بن الحسن إذا سهر الليالي ، وانحلت له المشكلات يقول : « أين أبناء الملوك من هذه اللذات . . . » ؟

وقيل لأبي بكر الخوارزمي عند موته : ما تشتهي . . . ؟ قال : النظر في

حواشي الكتب

لقد كانت القراءة لهؤلاء العباقره هي « ليلي » التي توله لها عقل
« قيس » حتى أن أبا القاسم الزمخشري يشدو بها فيقول :

سهرى لتنقيح العلوم ألدلي من وصل غانية وطيب عناق
وتايلى طرباً لحل عويصة أشهى وأحلى من مداة ساقى
وصرير أقلامى على أوراقها أحلى من الدوكاه والعشاق
وألد من نقر الفتاة لدفها نقري لألقى الرمل عن أوراقى
أبيت سهران الدجى وتبيته نوماً وتبغى بعد ذاك لحاقى

إن القارئ يعيش حياته حياتين ، بل يعيش عدة أجيال في جيل ، فحياته
غنية ثرية يعيشها طويلاً وعرضاً وعمقاً . . يقول الأستاذ العقاد :

« لست أهوى القراءة لأكتب ، ولا أهوى القراءة لأزداد عمراً في تقدير
الحساب ، وإنما أهوى القراءة لأن عندي حياة واحدة في هذه الدنيا ، وحياة واحدة
لا تكفيني ، ولا تحرك كل ما في ضميري من بواعث الحركة .

والقراءة دون غيرها هي التي تعطيني أكثر من حياة واحدة في مدى عمر
الإنسان الواحد ، لأنها تزيد هذه الحياة من ناحية العمق وإن كانت لا تطيلها
بمقادير الحساب » (١) .

* * *

(١) لماذا نقرأ ؟ . . للأستاذ عباس محمود العقاد .

القراءة والبحث ومسئولية المؤسسات التعليمية

القراءة عادة كسائر العادات التي تتكون في الإنسان منذ الصغر ، والبيت يشترك مع المدرسة في هذه المسئولية ، ولكن مسئولية المدرسة أعظم خطراً في هذا المجال . .

وإن المؤسسات التعليمية في العالم الإسلامي لتتحمل مسئولية أمية المتعلمين المنتشرة في طول الوطن الإسلامي وعرضه في جميع التخصصات . .

فنظم التعليم عندنا وضعت أذهان التلاميذ في قوالب جامدة وأساليب آلية ، وأصبحت غاية التلميذ أن يحفظ المقررات والمناهج ، حتى إذا جاء وقت الامتحان أودع معلوماته - بأمانة - على ورقة الإجابة ، وتنسى المعلومات ، ويُلقى بالكتاب المدرسي في صناديق القمامة ، ويصبح كل منتهى أمله أن يحصل على شهادة (رخصة) لأكل العيش في مجتمعات تنزل الناس منازلهم على قدر شهاداتهم لا على قدر علمهم . . !!

أما تحبيب القراءة إلى التلاميذ ، وتكوين عادات القراءة عندهم منذ نعومة أظفارهم حتى أعلى مستوياتهم - فهذا آخر شيء يفكر فيه المسئولون عن التعليم .

أما المكتبات المدرسية فما هي إلا « ديكور » للزينة أو ترف لا قيمة له .

إننا نتساءل - في عجب - ما الذي يمنعنا من أن نجعل من المكتبة وعلومها وطرق البحث - مادة مقررة كبقية المواد . . ؟

وماذا علينا لو فرضنا على كل تلميذ بحثاً في كل مادة من المواد الدراسية بدون استثناء ليصبح هذا البحث جزءاً لا يتجزأ من المنهج المقرر ؟

ولقد قمنا في مدرستنا بتجربة نعتقد أنها رائدة في هذا المجال ، فقد كلفنا كل تلميذ بعمل بحث ديني ، وجعلنا لهذا البحث درجة كبيرة من درجات الأعمال .

وكانت دهشتنا عندما رأينا في جبهة كبيرة من هذه البحوث جهوداً متنازعة تتم عن وجود مواهب يمكن أن يكون لها شأن إذا أحسن تعهدها وتوجيهها . .

وهذا العالم الإسلامي الذي يشكل ربع سكان الدنيا . . لم يستفد - للأسف - من توجيهات القرآن في ميدان العلم والبحث حتى لقد عُيِّرَ العرب بالجهل . .

عندما استضاف التلفزيون البريطاني « موشيه ديان » عقب هزيمة سنة ١٩٦٧ ، وجّه المذيع إليه سؤالاً يقول فيه : ألم تكن تخشى أن يتعرف العرب على طريقتك في الهجوم من خلال مذكراتك التي نشرتها بعد معركة ١٩٥٦ ، حيث « التكتيك » هو « التكتيك » ؟

فأجابه بكل بساطة : لم أخف . . لأن العرب لا يقرأون . .

والتهم الأول في هذا هو مؤسساتنا التعليمية . .

وهنا كلمة صدق جدية بالتسجيل للدكتور العلامة « فؤاد سزكين » .
الحاصل على جائزة الملك فيصل العالمية للدراسات الإسلامية في عام ١٣٩٩ هـ .
يقول في معرض إجابته عن سؤال حول أزمات العالم الإسلامي وكيف التغلب عليها :

« إنني أرى أن أزمات العالم الإسلامي كلها في فقدان العلماء الحقيقيين المعروفين ، لأنهم هم الذين يديرون حركة الصراع في العالم . . إننا في عصر قيادة العلماء ، لا الجهلاء ولا العساكر . .

وقد يقول قائل : إن نسبة المدارس زادت ، وإن الجامعات أصبحت كثيرة . .
فما إلى هذا قصدت ، وليس هذا هو التعليم الذي أقصد ، وإن ما أقصده هو العلماء الحقيقيون الباحثون ، وليس حملة الشهادات أو المتباهون بكلمة « الدكتور » أو طلاب الوظائف الإشرافية . .

إن أسلافنا ما طلبوا العلم لذلك كله ، وللأسف الشديد فإن الحضارة

الأوروبية قد أخذت عن حضارتنا هذا المنهج بينما انحططنا نحن إلى مستوى جعل العلم مجرد وسيلة لتحقيق أغراض ومنافع شخصية . .

وأكثر الجامعات لم تحقق التقدم العلمي ولا الحضاري المنشود . . وأكثر الجامعات في العالم الإسلامي لم تلحق بالتقدم العالمي ولا الحضاري وليس لها مكانة علمية ، وليست قادرة على تكوين علماء وباحثين حقيقيين . . . » .

ونحن نردد مع الدكتور « سزكين » بأن العصر هو عصر العلم والعلماء الباحثين ، وليس عصر الجهلاء والعساكر ، وأن الله لن يعذرنا بجهلنا ، ومن العار أن يعيش العرب والمسلمون عالة على ما تنتجه العقول غير المسلمة في جميع ميادين الحياة . .

ومن ثم فإننا نطالب بانقلاب وثورة في نظم التعليم عندنا حتى نستطيع التعامل مع العالم باللُّغة التي يُحسن فهمها . . ألا وهي لغة العلم . .

* * *

ماذا تقرأ وكيف تقرأ ؟

قيل لأرسطو : كيف تعرف إنساناً ؟ قال : أسأله ماذا يقرأ ؟ وكيف يقرأ ؟ .

فعلاً .. فنوع القراءة وطريقتها تحدد جانباً كبيراً من شخصية الإنسان . . . ولقد عرفت كثيراً من زملائي ونحن ما زلنا بعد طلبة في الصفوف الثانوية الأزهرية . . . عرفتهم يقرءون كثيراً . . . ولكن للأسف لم نكن نرى ثمرة لهذه القراءة لا غي أساليبهم ، ولا في مناقشاتهم العلمية . . . وبالطبع فإن ذلك راجع إلى أن طريقة القراءة طريقة فاشلة خاطئة . . .

نعود إلى السؤال الأول : ماذا أقرأ ؟ نحن بالطبع لن نحدد لك بالضبط ماذا تقرأ ، وإلا لكننا كمن يريد أن يصب عقول الناس في قالب واحد لتكون نسخاً متشابهة من كتاب واحد كما تفعل وسائل الإعلام . . .

ولكننا سنحاول أن نضع لك معالم على الطريق ، وأنت عليك أن تكمل الطريق بنفسك . . .

إذا كنت بعد لم تتكون عندك عادة القراءة ، فلا تيأس ، وابدأ من الآن بالطريق الذي طوله ألف ميل يبدأ بخطوة واحدة . . .

ابدأ أولاً بقراءة الكتب المبسطة . . . المبسطة في كل مجالات المعرفة سواء منها الدينية أو العلمية أو الأدبية ، وأماننا الآن قائمة بسلاسل لهذه الكتب المبسطة ، ولكننا سنترك ذلك لذوقك واختيارك ، أو لاستشارتك لمعلمك أو أمين مكتبتك ، وذلك لأنك ربما لا تعثر على هذه الكتب حيث أنت ، وربما يكون قد برز على مسرح المعرفة دراسات أقوى مما يمكن أن نسوقه إليك ، والمهم أن تبدأ . ولا شك أنك بقراءتك لهذه الكتب المبسطة ستشعر بأنك أضفت إلى نفسك جديداً من المعرفة ، وستلاحظ أن القراءة قد انعكست على أسلوبك في كتاباتك

وفي مناقشاتك ، وفي مقالاتك في الصحافة المدرسية أو الجامعية ، بل في شتى مجالات الحياة . . وانظر حولك إلى الأعلام من العلماء والأدباء والمفكرين . . ما المؤهلات التي وضعت كلاً منهم في مكانته ؟

الإجابة : القراءة .. ثم القراءة .. ثم القراءة . . .

وأذكر أنني منذ سنوات كنت أصحح إجابة سؤال التعبير في إحدى الشهادات العامة . وبعد ما قرأت الموضوع ، وجدت أنه يتحدث أن صاحبه قارئ جيد ، وصممت على أن يأخذ الطالب الدرجة النهائية . . وهكذا فالكتابة الجيدة تتم عن القارئ الجيد . . .

وتظل مدمناً على قراءة هذه الكتب المبسطة حتى تصير القراءة عندك ملكة ، وعندئذ ستجد أنك تلقائياً تميل إلى نوع من القراءة المتخصصة ، ولكن هذا لا يعني أن تهمل الجوانب الأخرى للمعرفة . . .

وينبغي عليك قبل أن تبدأ صولاتك وجولاتك مع أنواع المعارف .. ينبغي عليك أن تتعمق بعض الشيء في القراءة الدينية وتطلع على حكم الإسلام في مختلف القضايا ، وكيف عالج مشكلات العصر ، ولا أقول لك : تعمق لتكون كأبي حنيفة والشافعي . . بل تعمقاً يُكوّن عندك شيئاً اسمه « الذوق الإسلامي » الذي لا بد أن يتسلح به كل شاب مسلم يريد أن يلج ميادين المعرفة من أوسع أبوابها ، لأنه ليس كل ما كتب وطبع أصبحت له القداسة المطلقة ، ولأنك ستجد في هذا العالم من الغرائب والعجائب والشطحات الفكرية ، ما لا يمكن أن يعصمك من الوقوع في برائنه سوى الذوق الإسلامي الذي اكتسبته من مطالعاتك الدينية ، وهذا الذوق بمثابة التطعيم الفكري ضد عدوى الأمراض الفكرية . . .

كذلك أنصحك بالابتعاد عن كتب الجنس الرخيصة ، لأنها ستشتت فكري ، وتضيّع وقتك ، وتبدّد طاقتك في غير نفع . . .

ونأتي إلى إجابة السؤال الثاني : كيف أقرأ . . ؟ وهنا بيت

القصيد ، ونقول لك : اعلم - وَفَّقَكَ اللهُ - أن مثل القارئ الذي لا يسجل مما يقرأ كممثل الراقم على الماء ، والنافخ في رماد ، ومن يدور في حلقة مفرغة . .

وقد ضربت لك المثل آنفاً بالزملاء المدمنين على القراءة ، ولكنهم لم يجنوا من ثمارها شيئاً يذكر ، لأن المعلومات يُنسى بعضها بعضاً ، وإذا بقى شيء منها في الذهن ، فإنها بقية باهتة لا تغني صاحبها شيئاً ، ولا تُسَعفه عند الطلب . .

ولقد فطن أساطين العلماء العرب إلى هذا الأسلوب ، فقال عمر رضي الله عنه : « قَيِّدُوا الْعِلْمَ بِالْكِتَابِ » وقال الخليل بن أحمد : « ماسمعت شيئاً إلا كتبتة ، ولا كتبتة إلا حفظته ، ولا حفظته إلا نفعني » وسأعرض عليك طريقتين لست ملزماً بهما ، وإنما - كما قلت لك - هي معالم على الطريق :

الطريقة الأولى - هي طريقة « ثمرة القراءة » : وهي أنك إذا فرغت من قراءة أي كتاب فاستحضر سجلاً خاصاً ، وأمام الأهداف الآتية دَوِّنْ رأيك في صدق وصرامة .

- ١ - موضوع الكتاب : تاريخي ، ديني ، قصصي ، طب ، اجتماع ، فنون ..
- ٢ - ملخصه : في إيجاز واختصار (أو نقل أفكار أو عبارات أعجبتك) .
- ٣ - لغسته : عربية فصيحة ، دارجة (عامية) ، للخاصة ، للعامة ، لهما معاً . . .
- ٤ - أسلوبه : سليم ، ركيك ، قوي ، عاطفي ، علمي ، قصصي ، حوار : شعر ، نشر ، مزيج من الشعر والنثر . . .
- ٥ - ألفاظه : منتقاة ، صعبة ، سلسلة ، سهلة . .
- ٦ - الحكم عليه : جيد ، رديء . . .
- ٧ - فكرته : عالية ، هزيلة ، واضحة ، غامضة . .

- ٨ - قدرة الكاتب على التحليل
- ٩ - طريقة عرضه : جذابة ، شائقة ، ممتعة
- ١٠ - الأثر الذي تركه في نفسك
- ١١ - أحسن فقرة فيه : دَوِّن الفقرات التي استهوتك في أثناء القراءة ، وأحسست بمتعة في تكرارها
- الطريقة الثانية - طريقة السجلات المتخصصة :

يقوم القارئ بإعداد سجل خاص لكل فرع من فروع المعرفة ، فعلى سبيل المثال : يُعد سجلاً للمعارف الدينية ، وثانياً للمعارف الطبية ، وثالثاً للشعر ، ورابعاً للحكم ، وخامساً للتعبيرات الرائعة وهكذا .

نفرض أنك قرأت كتاباً يضم هذه المعارف كلها ، ورغبت في تدوين بعض المعلومات للاحتفاظ بها . . . قم بتدوين كل فرع من هذه الفروع في سجله الخاص به ، ولا تنسى أن تسجل في آخر المعلومات أو في أولها اسم الكتاب ومؤلفه والعام الذي طُبِع فيه ودار النشر التي قامت بنشره ، ويمكن أن تضيف من معلومات الطريقة الأولى إلى هذه الطريقة ما تجده مناسباً لك . . .

وهنا سؤال يطرح نفسه : كيف يُحدد القارئ المواضيع التي يُريد تسجيلها بعد انتهائه من قراءة الكتاب . . ؟

أفضل طريقة - فيما نرى - هي الاستعانة بمحتويات الكتاب (الفهرس) فيضع القارئ علامة خفيفة (بالقلم الرصاص) أمام الموضوع الذي يريد التسجيل منه ، وإن تقاربت المواضيع أو كثرت فلا مناص من وضع هذه العلامة في هامش الصفحة أمام السطر أو الفكرة ، وبذلك يسهل على القارئ الرجوع إلى ما يريد تسجيله بدون عناء . . .

وهذه المعلومات التي سجلتها تعتبر كماً مُهملاً إذا لم تُراجعها بين الحين والحين حتى تستوعبها أو تحفظ منها ما يستحق الحفظ ، وهنا فقط تكون قد وصلت إلى ثمرة القراءة ، ولو استطعت تسجيل هذه المعلومات على أسطرة تسجيل متخصصة أيضاً بعد تدوينها لكان ذلك أمتع وأوفر جهداً ، لأن هذه الطريقة ستُسَهِّل عليك المراجعة عن طريق السمع فقط دون أن تجهد بصرك . . .

وإلى هذا الأسلوب الذي وضعناه لك أنفاً يشير الكاتب الإنجليزي « رسكن »
 فيقول : « قد تقرأ كل ما في دار الكتب الإنجليزية ، وتصبح بعد - كما كنت
 - إنساناً غير متعلم ، ولكن إذا أنت قرأت عشر صفحات بإمعان في كتاب
 طيب كنت إلى درجة ما إنساناً متعلماً » .
 وقال ابن المقفع : « اكتبوا أحسن ما تسمعون ، واحفظوا أحسن ما تكتبون ،
 وتحدثوا بأحسن ما تحفظون » .

وهذا الشاعر يصف من يجمع العلم الكثير ، ولكنه لا يعي منه شيئاً في
 ذاكرته بأنه بهذا الأسلوب يرجع القهقري ، فيقول :

أما لسو أعى ما أسمع	وأحفظ من ذاك ما أجمع
ولم استفد غير ما قد جمعت	لقل هو العالم المقنع
ولكن نفسي إلى كل فن	من العلم تسمع تنزع
فلا أنا أحفظ ما قد جمعت	ولا أنا من جمعه أشبع
ومن يك في علمه هكذا	يكن دهره القهقري يرجع
إذا لم تكن حافظاً واعياً	فجمعك للكتب لا ينفع
أأحضر بالجهل في مجلس	وعلمي في الكتب مستودع

وقال آخر

علمي معي حيثما يمتُّ أحمله	بطني وعساء له ، لا بطن صندوق
إن كنت في البيت كان العلم فيه معي	أو كنت في السوق كان العلم في السوق

ويعد . . .

ينبغي أن يكون رحيق القراءة هو الانفعال بها والتفاعل معها سلوكاً في
 الحياة إن كانت داعية إلى خير ، وإن كانت الأخرى ، فكما قال الشاعر :

عرفت الشر لا للشر لكن لتوقيه
 ومن لا يعرف الشر من الناس يقع فيه

* * *

القراءة والطب

يتحدث الدكتور صبري القباني تحت عنوان : « مرن عقلك كما تمرن ساعدك » ، فيقول : ومن القواعد الطبية المعروفة ، أن العضو العامل يأخذ حظه من الغذاء بالنسبة إلى كثرة مجهوده ونلته ، فتتحريك عضو من الأعضاء يستدعي هجوم الدم إليه بكثرة ، وتغذيته بوفرة ، وبالتالي يستدعي نموه ، وازدياد فعاليته وكبر حجمه . . . وكذلك الدماغ إذا أهمل ولم تُقدَّم له التمارين الفكرية ، بالأبحاث الدماغية التي من شأنها تشغيله ، واستدعاء الدماء إليه بغزارة - فإن مراكزه الحساسة تبقى هاجعه ضعيفة واهية . . والمثابرة على الاطلاع في شتى العلوم والفنون تستدعي توسيع العروق ووفود الغذاء ، فتتموج حجيرات الدماغ ، ويتسع سطحه ، ويزداد نشاطه ، فيتصف صاحبه بالذكاء ، ولنضرب على ذلك مثلاً : الطبيب - إنه يتخرج في الجامعة ، وقد امتلأ دماغه بشتى فروع العلم ، فإذا اعتمد على معلوماته وذكائه ولم يوال البحث ، وتنمية عقله ، تقلصت معلوماته سنة بعد أخرى ، وعفى الزمن على علمه وفنه . . وقد تبين أخيراً من فتح أدمغة النوايع والأذكيا ، أنها لا تختلف عن أدمغة الأغبياء حياً ، أو شكلاً ، أو تكويناً ، إلا باتساع العروق الدموية ، وغناها بهذه الأوعية التي تنقل إليها الغذاء فتُذَكِّيها « (١) .

وما قاله الدكتور هو عين المعنى الذي نقله ابن القيم عن الأطباء المسلمين . يقول ابن القيم : « وأي عضو كثرت رياضته قوى ، وخصوصاً على نوع تلك الرياضة ، بل كل قوة فهذا شأنها ، فمن استكثر من الحفظ قويت حافظته ، ومن استكثر من الفكر قويت قوته المُفكرة » (٢) .

* * *

(٢) زاد المعاد .

(١) طبيبك معك .

الفراغ ومنهج الإسلام في استثماره

الفراغ . . هو ذلك الغول المخيف الذي يفترس الإنسان العاقل . . وهو من أقوى أسلحة الشيطان ضد الشباب . . والمجتمعات التي لا تستثمر طاقات شبابها إنما هي مجتمعات تنتحر انتحاراً بطيئاً . .

وإننا لنعجب كل العجب من تلك الدول المسلمة المتخلفة والتي تعيش عالية على ما تنتجه العقول الشرقية والغربية في شتى مجالات الحياة - نعجب إذ ترك شبابها نهياً للفراغ والضياع . .

لماذا لا نُقيم معسكرات عمل للشباب على جميع الجبهات ، وعلى كل المستويات ، وكأنه استنفار عام ، وتعبئة شاملة . . ؟

لماذا لا نُقيم للشباب معسكرات للتدريب العسكري في فترات إجازاتهم لتنمي فيهم روح البطولة ، ولتكون بمثابة متنفس نظيف لطاقتهم المذخورة في كيانهم ؟

لماذا لا تقوم الأجهزة المسئولة عن الشباب في كل بلد مسلم بإقامة المعسكرات الإسلامية ، وإقامة النوادي (النظيفة) التي تستمد لوائحها ونظمها من خُلُق الإسلام وسلوكه . . ؟

والإجابة . . لا أدري الا أن ذلك ضرب من ضروب الكسل والإهمال وسوء التخطيط الذي أصبح سمة مميزة لعامة المجتمعات الإسلامية في هذا العصر . .

ولقد مرَّ بنا كيف كان موقع الشباب في صدر الإسلام ، وكيف أن رسول الله ﷺ لم يترك شبابَه وقوداً هشاً لنار الفراغ المحرقة . . فلا عجب إذا رأينا رجلاً كـ « مونجمرى وات » يقول في كتابه « محمد في مكة » : « إن الإسلام كان في الأساس حركة شباب » .

نعم . . كان حركة شباب ، ويسوعدهم ارتفع البناء شامخاً يناطح الجوزاء .

وعلى هذا النهج السامي في تربية الشباب سار خلفاء رسول الله ﷺ ، فنجد عمر رضي الله عنه يخاف على الشباب غوائل الفراغ فينتبه ولاتته إلى ذلك قائلاً لأحدهم : « يا هذا ، إن الله قد خلق الأيدي لتعمل ، فإذا لم تجد في الطاعة عملاً التمسست في المعصية أعمالاً ، فاشغلها بالطاعة قبل أن تشغلك بالمعصية » .

ويؤجّه رسول الله ﷺ النظر إلى أن الوقت من النعم التي لا يشعر بها الإنسان فيقول : « نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس : الصحة والفراغ » ^(١) .
 وبصور الحق - تبارك وتعالى - مشاهد الحسرة التي تقطع نياط قلوب الغافلين عند الموت فيقول : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ * لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ، كَلَّا ، إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا ، وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ ^(٢) .

﴿ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصْدُقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ * وَلَنْ يُؤَخَّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا ، وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ ^(٣)

ولأن هذه الأعمار كانت خراباً وصفرأ من كل عمل نافع من الأعمال الصالحة . . فإن أصحابها يتوهمون أن عشرات السنين التي مكثوا فيها على الأرض ماهي إلا ساعة ، أو عشية وضحاها ، أو يوم أو بعض يوم . . .

﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ ﴾ ^(٤) .

(١) رواه البخاري .

(٢) المؤمنون : ٩٩ ، ١٠٠ .

(٣) المنافقون : ١٠ ، ١١ .

(٤) الروم : ٥٥ .

﴿ كَانْتَهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبِسُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا ﴾ (١) .
 ﴿ قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ * قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ
 يَوْمٍ فَمَا سَأَلِ الْعَادِينَ ﴾ (٢) .

نرتت الإنسان هو عمره ، وهو أعلى من الذهب ، لأن الذهب يذهب ويعود
 والعمر إذا ذهب . . فإنه لا يعود :

حياتك أنفاس تُعَدُّ فكلما مضى نَفْسٌ منك انتقصت به جزءاً

فُتْصِح في نقص وثمسي بمشله ومالك معمول تحس به رزاء أ

وليته إذا مضى لا يُخَلِّف آثاراً ولا تَبِعات ، ولكن يُسْئَل عنه كل إنسان في
 ساحات القيامة قال ﷺ : « ما تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسئل عن
 أربع . عن عمره فيم أفناه ، وعن شبابه فيم أبلاه ، وعن ماله من أين اكتسبه
 وفيم أنفقه ، وعن علمه ماذا عمل فيه » (٣) .

إن مرحلة الشباب - ياشباب - هي مرحلة الطاقة المتوقدة ، والحيوية
 المتدفقة ، والعتاء بغير حدود . . الفترة التي تستطيع فيها أن تصنع العجائب
 . . وآمالك وأحلامك ومستقبلك إذا لم تتحقق في هذه المرحلة فعليك العفاء . .

إذا المرء أعبته امرأة ناشتاً فمطلبها كهلا عليه عسير
 يقول عالم النفس وليم جيمس : « إذا قسنا أنفسنا إلى ما يجب أن نكون
 عليه لاتضح لنا أننا أنصاف أحياء . فإننا لا نستخدم إلا جانباً يسيراً من
 مواردنا الجسمانية والذهنية ، أو بمعنى آخر ، إن الفرد منا يعيش في حدود
 ضيقة يصنعها داخل حدوده الحقيقية . . إنه يمتلك قوى كثيرة مختلفة . . ولكنه
 عادة لا يفتن لها ، أو يخفق في استخدامها » .

(٢) المزمون : ١١٢ ، ١١٣ .

(١) النازعات : ٤٦ .

(٣) رواه البيهقي والترمذي .

أُتعرّف يا صديقي الشاب أن الفراغ الذي تعاني منه قد حداً بعمالقة البشر إلى أن يستثمروه في الحصول على بطولات رياضية ، أو انتصارات علمية تنعم البشرية في ظلها اليوم ، ففرضوا أنفسهم على الناس أحياء وأمواتاً ، ولم يذهبوا كغشاء السيل ، ولم يرضوا لأنفسهم أن يكونوا نسخاً مكررة من ملايين النسخ التي تشاهدها في النماذج البشرية كل يوم ، وإنما رحلوا عن الدنيا وقد تركوا بصماتهم عليها . . .

والفتاة المسلمة أيضاً ينبغي علينا أن نُقيم لها النوادي المغلقة الخاصة بها لتمارس فيها نشاطها الاجتماعي والرياضي ، وعليها أن تُشغل أوقات فراغها بالتفصيل والتطريز والقراءة ، وقريض النساء . . . وأن تُعدّ نفسها لتكون زوجة مثالية ، وأماً مثقفة ينعكس ظل ثقافتها على تربية أولادها بل وعلى مجتمعها المسلم أيضاً . . .

تقول « دروئي كارنيجي » : « وكثيرون هم الناجحون الذين بلغوا ذروة النجاح معتمدين على ما جنوه من علم ومعرفة خلال أوقات فراغهم . . .

كان « تشارلس فروست » إسكافياً ولكنه استطاع أن يصبح من المبرزين في الرياضيات بتخصيص ساعة واحدة من يومه للدراسة . . .

وكان « جون هنتر » نجاراً . . . ثم شرع يدرس « التشريح المقارن » في أوقات فراغه ، مخصصاً لنومه أربع ساعات وحسب من الليل ، حتى أصبح حُجة في هذا الميدان . . .

واستطاع « سير چون لايبك » أن يقتطع من يومه المزدحم بالعمل - بوصفه مديراً لأحد المصارف - ساعات يقضيها في دراسة التاريخ حتى أصبح علماً بين المؤرخين .

وتعلم « جورج ستيفنسون » الحساب في أوقات نوباته الليلية بصفته مهندساً، ووسعه مستعيناً بهذا العلم أن يخترع القاطرة . . .

ودرس « جيمس واط » الكيمياء والرياضة في أثناء اشتغاله بالتجارة فأمكنه أن يخترع المحرك البخاري . .

ولله كم كان يخسر المجتمع الإنساني لو أن هؤلاء الرجال قنعوا بأعمالهم المتواضعة ، ولم يجدوا في أنفسهم دافعاً للاستزادة من العلم والمعرفة . .
ولا يلومَنُ أحد إلا نفسه إذا لبث مغموراً مجهولاً لأنه تخلى عن متابعة العلم منذ اللحظة التي أدرج اسمه فيها في كشف المرتبات «^(١) .

صديقي الشاب : إذا لم تُشغَل نفسك بالحق شَغَلْتكَ بالباطل ، وقد يهجم لك الشيطان فيغريك ويمد لك في حبال الأمانى الكاذبة فيقول لك : إنك ما زلت ترفل في حميا الشباب وما زال العمر ممتداً لتحقيق الآمال ، ولكنها وسوس خبيثة تجعل الشاب بعد أن يصبح في عداد الشيوخ ينظر إلى عمره الذي ولى وكأنه حلم نائم . .

يقول « ستيفن ليكوك » : « ما أعجب الحياة ، يقول الطفل : عندما أشب فأصبح غلاماً . ويقول الغلام : عندما أترعرع فأصبح شاباً . ويقول الشاب : عندما أتزوج . فإذا تزوج قال : عندما أصبح شيخاً متفرغاً . . فإذا واتته الشيخوخة ، تطلع إلى المرحلة التي قطعها من عمره ، فإذا هي تلوح كأن ريحاً اكتسحتها اكتساحاً . . إننا لا نتعلم إلا بعد فوات الأوان ، أن قيمة الحياة في أن نحياها ، وفي أن نحيا كل يوم منها وكل ساعة » .

إننا في حاجة إلى الطبيب المسلم ، والصيدلي المسلم ، والمهندس المسلم ، والمعلم المسلم ، والمحاسب المسلم ، والمحامي المسلم ، والموظف المسلم ، والمحترف المسلم . . في كل ميدان نحتاج إلى علماء مسلمين ، حتى يقدموا

(١) ادفعي زوجك إلى النجاح - لدررشي كارنيجي ص ٧٣ ، ٧٤ .

العطاء الكبير لهذا الدين ، ولن يتمكنوا من العمل لهذه الغاية
النبيلة من خلال هذه المجالات إلا إذا كانوا علماء فيها ، ولن
يكونوا علماء فيها إلا إذا سَخِرُوا أوقات فراغهم لبلوغ هذا الهدف
العظيم . . .

وأخيراً تأمل معي قول الشاعر :

اثنان لو بكت الدماء عليهما عيناى حتى يؤذنا بذهاب
لم يبلنا العشار من حقيهما فقد الشباب ، وفرقة الأجاب

* * *

الإسلام وتربية الإرادة

لو تأملنا ملياً أسرار العبادات التي فرضها الله على المسلم ، لعلنا أنها تُربي في النفوس روح القوة . . قوة العقيدة . . قوة الإرادة . . قوة السيطرة على جوامح النفس ونوازعها ، ولذلك نجد أن صحابة رسول الله ﷺ بعد ما انتصروا على أنفسهم دانت لهم الدنيا بعد ذلك ، وأسلس لهم قيادها . .

لم يستجيبوا للإحباط ، ولم يقعوا فريسة لليأس والقنوط ، لأن العقيدة قد أكسبتهم قوة شكيمة وصعوبة مراس ، وروحاً قوية تؤثر في الأحداث ولا تتأثر بها . . . وما لهم لا يكونون كذلك ورسول الله ﷺ مثلهم الأعلى عندما ساومه كفار مكة على دعوته ، وعرضوا عليه كل ما يحلم به سيد وزعيم ، يُرسلها مُدوية في أسمع الدنيا : يا عم . . والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يُظهره الله ، أو أهلك فيه ما تركته « (١) .

ولو أن رسول الله ﷺ استجاب للإغراء أو للإحباط ، لصار الإسلام في عداد الحركات الفاشلة التي تفور ثم تغور . .

فإذا كان الإسلام يُنمي في أتباعه هذه الروح الوثابة ، فينبغي إذن على كل شاب مسلم أن يرسم لنفسه طريقاً في الحياة ، وأن يتخذ لنفسه مثلاً أعلى يعمل على تحقيقه ، وليعلم علم اليقين أن الله عز وجل دفع بالإنسان إلى هذه الحياة وهو مزود بمواهب معينة . . هذه المواهب تذل وتقت عند الإنسان الخانع الكسول المحب للراحة والدعة . .

حب السلامة يثني هم صاحبه
عن المعالي ويفري المرء بالكسل
فإن جنحت إليه فاتخذ نفقاً
في الأرض أو سلماً في الجوفاعتزل

(١) حديث شريف .

هذا الشاعر يقول : إنه لا مكان لمن يريدون السلامة في عالم المغامرة . .
يقول لهؤلاء الذين يريدون الإخلاق إلى الراحة : أفسحوا الطريق لأصحاب
الرجولة والبطولة . . فلا مكان في هذا الميدان ، لأنه لا يصلح للنفوس المنهزمة
والعزائم الراكدة .

ويقول « ديل كارنيجي » : « إنك شيء فريد في هذا العالم . . إنك نسيج
وحدك ، فلا الأرض منذ خلقت رأيت شخصاً يشبهك تمام الشبه ، ولا هي في
المصور المقبلة سوف ترى شخصاً يُشبهك تمام الشبه » .

ويتل : « أنت نسيج وحدك في هذه الدنيا ، فاغبط نفسك على هذا واعمل
على الاستزادة مما ركبته فيك الطبيعة من مواهب وصفات . . » .

ويقول « جون كيندي » : « إننا يجب أن نبحث بكل قدرتنا عن شيء يستحق
أن نعيش من أجله ، فالهدف العظيم يصنع الرجل العظيم ، والهدف السامي
ينظم وينسق جميع نشاط صاحبه ، وكلما زاد سمو الهدف زاد سمو الشخص ،
والرجال الأقوياء يصنعهم وضوح رؤيتهم لأهدافهم » .

نعم . . لا بد أن تكون رؤيتك لأهدافك واضحة ، ولتكن خططك في حدود
إمكاناتك وظروفك ، واحذر أن تبني قصوراً على الرمال ، فتضع نصب عينيك
هدفاً يفوق ما تملك من قدرات وخبرات واستعدادات . . فهذا نوع من أحلام
البقطة التي تصيبك في نهاية الطريق بالإحباط وخيبة الأمل . .

ولكن ، ألا يتعرض الشاب لعثرات في الطريق ؟ . . نعم ، وما دمت تعمل
فإنك ستجد العقبات ، ولكن علينا أن نأخذ من الفشل الدروس والعبر لنقتحم
من جديد ، ولنجعل من الإخفاق حجراً نقف عليه لنرفع البناء شامخاً في جو
السماء . يقول « شكسبير » : « معاودة الكفاح بعد الفشل يثبت
من أي معدن صنع الرجال » .

ولو أن كل مخترع أو مبتكر استجاب للإحباط من أول مرة - ربما

لم تَر هذه السيارات وهذه النفاثات وربما تأخر ظهورها عشرات
السنين . .

لقد قضى « جيمس واط » في عمل آله البخارية ثلاثين عاماً
حتى انتهى من عملها وذلك مع فقره واستدانته ليحقق حلمه الكبير . .

وقضى « جورج ستيفنسون » خمسة عشر عاماً يعمل في تحسين
مركبه البخاري رغم أنه بدأ أمياً وتعلم القراءة والكتابة بعد أن
وصل إلى الثامنة عشرة .

إن المبرزين من العلماء تَغلبوا على بيئاتهم وظروفهم . . تَحَدُّوا
الواقع ، وقهروا الظروف ، وارتفعوا فوق مستوى البيئة ، وتربعوا
فوق عروش المجد ، وكل منهم وراء نجاحه قصة نسجت خيوطها من
الألم والعرق والجهد والكفاح المرير . .

وأغلب الصفات المميزة لهؤلاء العلماء والعباقرة الذين كان لهم أعظم الأثر
في حياة البشر - هي الصبر والمثابرة وطول النفس حتى حققوا أهدافهم التي
غيرت وجه الحياة على الأرض . .

ولو أننا ذهبنا نستقصي هذه النماذج لأعياننا الحصر :

فهذا الإمام أبو حنيفة كان خَزَازاً . .

وهذا أبو العلاء المعري كان رهين المحبس . .

وهذا أبو الطيب المتنبي كان ابن سقاء . .

وهذا أبو عثمان الجاحظ كان بائع سمك . .

وهذا العقاد - صاحب العبقريات - وصل إلى القمة بقراءته ولم
يحصل على شهادات .

وهذا أديب العربية الفذ مصطفى صادق الرافعي كان أصم لا يسمع . .

وشكسبير شاعر إنجلترا الشهير كان أبوه خُشْباً . .

وقولتير شاعر فرنسا كان ابن عامل فقير . .

وكولومبس مكتشف أمريكا كان أبوه خياطاً . .

وإديسون أول مخترع للآلات الكهربائية كان بائع صحف . .

فهؤلاء ، وغيرهم ، لم تقعد بهم الظروف أو الفقر أو العاهات عن الوصول إلى أهدافهم ، بل إنهم وصلوا إليها بكل قوة ودخلوا التاريخ من أوسع أبوابه . .

ولكن ينبغي علينا أن نعلم أنه إذا كان الإيمان بالله عز وجل يُكَمِّلُ عدد الجيوش المقاتلة في سبيله ، فإنه أيضاً يضيف إلى طاقة النفس البشرية - التي أخلصت وجهها لله - قوة لا تنفد ، لأنها بذلك تستمد شحناتها من الله الذي يمد هذا الوجود بروح الحياة . .

وقبل أن نغادر هذا المبحث ، أدعوك إلى أن تتأمل روح هذين البيتين :

لا تنال العلا بـ « ليت » ، و « لكن » وعكوف الفتى على مرآته

آلة الفسوز همة تطحن الصخر وتسمو للنجم في سبحاته

* * *